"الأقباط عنصر أساسى فى الأمة المصرية، لايمكن أن تقوم دراسة صحيحة عن مصر وشعبها دون د راسة للأقباط تا ريخا ولغة وجنسا وأدبا وفنا "

لمثلث الرحمات المتنيح الأنبا يؤانس أسقف الغربية

ومساهمة منا فى نشر الوعى بالتاريخ القبطى فأننا نقتبس من كتاب

حضارة مصر فـــى العصر القبطى

تأليف مراد كامل

رابعا : الحياة الفنية

الفنون القبطية :

تعانى الفنون فى حياتها فترات من الخمول أو الضعف ، فإذا واتتها ظروف جديدة للانتعاش عادت حاملة معها مختلف صفاتها القديمة وخصائصها وطابعها . ولقد حدث فى العصر المسيحى فى مصر حين أفسحت الحياة المصرية مجالاً للفنون ، أن نمت الفنون وترعرعت حاملة فى طياتها مختلف الصفات الموروثة من عصور سابقة . وفى هذا تقول " زالوشر " أننا نؤمن الآن أن الفن لا يتقدم فى خط مستقيم مطرد ، بل من الثابت أن تياراته تتقابل وتتراكم ثم تمحى وتختفى ، لتعود إلى الظهور بقوة ووضوح .

وأن ظاهرة العودة إلى الظهور هذه نجدها ملموسة فى الفن القبطى .

الصفات العامة للفن القبطى :

(أولاً) فن شعبى : لم تكن الشعبية من خواص فنون الأمم القديمة ذات الحضارة لأنها نشأت تحت كنف الحكام والأمراء وأصحاب الجاه ، واكتسبت وجودها وتوجيهها وتطورها من رعايتهم . وكان هؤلاء السادة يختارون الفنانين ويأمرونهم بصنع كذا أو كذا من القطع الفنية فيستجيبون . وهكذا نجد الفن المصرى القديم ينتعش أبان عهد الملوك الذين أولوه رعايتهم ، ويضعف فى عصر الضعفاء منهم أو الذين أهملوه .

أما الفن القبطى فهو الأول فى الشرق القديم الذى كانت له صفة الشعبية . فإن الأباطرة لم يعودوا يقطنون مصر كما كان الحال أيام الفراعنة ،أو أيام البطالمة . بل كانت مصر فى عهدهم ولاية رومانية تابعة لرومه أو بيزنطة ، وصار الأباطرة إذا أرادوا إقامة أعمال فنية تخلدهم يقيمونها فى عواصهم لا فى مصر .

وبذا فقد الفن القبطى التوجيه السياسى واتجه نحو الشعبية البحتة ، فنحن إذا نظرنا إلى الكنيسة الكبيرة فى الدير الأبيض قرب سوهاج وهى من بناء القديس شنودة ، أو إذا زرنا كنائس مصر القديمة ، أو دير القديس سمعان فى الضفة الغربية بأسوان أو كنائس الواحات الخارجة أو إذا شاهدنا الآثار القبطية فى المتحف القبطى أو مختلف متاحف العالم نجد أعمالاً فنية قام بها الشعب المصرى ووضع فيها الفنان القبطى عصارة روحه ومهارته .

(ثانياً) فن دينى ومدنى : خيل للبعض أن الفن القبطى فن دينى يتصل بالكنيسة والعبادة فحسب ، وما من شك أن هذا الرأى خاطىء، فهو فن الشعب المصرى بأكمله ، يظهر فى الأمور الدينية كما يظهر فى النواحى المدنية بوضوح . وإن كنا نجد أن أغلب العمائر الباقية من ذلك العصر عمائر دينية مثل الكنائس أو الأديرة ، فمرجع ذلك إلى إهتمام الشعب عادة بدور عبادته ومحافظته عليها .

ولاشك أن أهم العمائر التى وصلتنا من مصر القديمة أو من مصر الإسلامية هى أيضاً عمائر تتصل بالنواحى الدينية مثل المعابد أو الأضرحة والمساجد .

وقد وصلتنا أعمدة وزخارف من بيوت أفراد الشعب إلى جانب ما وصلنا من أديرة وكنائس . ووصلتنا أقمشة كان يلبسها الكهنة فى الخدمة الدينية ، كما وصلتنا أقمشة عديدة كان يلبسها عامة الناس فى حياتهم أو يكفنون بها موتاهم . ولدينا الآن أدوات كانت تستخدم فى الكنائس وأدوات أستخدمت فى المنازل أو الحقل ، أو الصناعة .

(ثالثاً) فن نبع من البيئة المصرية وعبر عنها : نرى فى صور الوجوه القبطية ملامح المصرى بعينيه الواسعتين المستديرتين وأنفه ولون بشرته كما نرى صور الحيوانات الأليفة التى تملأ البيوت والحقول مثل القط والكلب والبقرة والجمل والحمل .

ونرى الزخارف تصور لنا أوراق النبات المختلفة وأفرعها وثمارها كالعنب والنخيل والرمان والقمح والأكانتس . كما نرى صور السفينة الشراعية تمخر عباب نهر النيل وكلها مألوفة لديه ، ونجد الأساطير القديمة المتداولة بين المصريين سواء بنصها القديم أو بعد أن أتخذت معانى جديدة وصوراً جديدة تتفق مع الديانة الجديدة التى اعتنقها المصريون .

(رابعاً) ثمرة ما سبقه من فنون ومؤثرات فنية : أننا نجد فى الفن القبطى أثر الفن المصرى القديم والفن الإغريقى والفن الرومانى ، وإن كنا فى الواقع نجد الروح المصرية الخالصة كلما اتجهنا فى البلاد جنوباً .

وكذلك تأثر الفن القبطى بالفن السورى وفنون البلاد المجاورة ، إذ أن المسيحية قد نشأت فى بلاد فلسطين وانتشرت فى الشام وبلاد البحر المتوسط ، وانتشرت معها بعض فنون تلك البلاد بحكم الاتصال ، وصار المصريون يهتمون بفنونها وبخاصة فن الشام .

(خامساً) فن جمال لا ضخامة : لم يبلغ الفن القبطى حد الروعة كما بلغ الفن المصرى القديم ، كما أنه فقد إنتاج الأشياء الضخمة ، التى تميز بها الفن المصرى القديم . فمن مصر القديمة وصلتنا الأهرام ، والمعابد الهائلة كالكرنك

والتماثيل الضخمة كتماثيل رمسيس . والأعمدة الشامخة والمسلات . ولكن الفن القبطى كان فن جمال يهتم بإبراز المعانى فى دقة .

(سادساً) فن للزينة : وصلنا كثير من أفاريز المبانى ورءوس الأعمدة ، وكثير مما تزين به الجدران والأسقف والأعمدة ، وما تزين به التوابيت والمصنوعات المعروفة بالفسيفساء . كما أظهر لنا الفن القبطى ما تزينت به النساء من حلى وأحجار كريمة وملابس وخاصة ذات الألوان الزاهية منها ، وامتدت الزينة إلى كتابات الأقباط فزينوا الكتب وزخرفوا صحائفها بزخارف بالغة حد الذوق الفنى السليم .

(سابعاً) فن يستخدم الأشكال الهندسية والرمزية : نجد فى هذا الفن زخارف أساسها المثلثات والمربعات والدوائر والخطوط المتلاقية والمتقاطعة ، ومستخدمة فى كل شىء ، ولا ننسى أن ننبه إلى أن هذه الخاصية ، وخاصية التزيين التى سبقتها ، كانتا كثيراً ما تجنحان نحو أمور رمزية ، وقد دفعت هاتان الخاصيتان بالفن القبطى بعيداً عن الواقع وتصوير طبيعة الإنسان ، الأمر الذى قد يجر إلى مظاهر خليعة لا يوافق عليها رجال الدين . وحين دخل العرب والإسلام مصر وجدا تربة خصيبة للتعبيرات الفنية ، فأخذ الفنانون يخرجون القطع الفنية التى تناسب العرب والدين الإسلامى ، مما نراه واضحاً فى الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعانى الرمزية التى تبعد عن تصويرالأشخاص . وهكذا نجد صفات مصرية أصيلة راسخة فى الفن المصرى المسيحى الذى سلمه بدوره إلى الفن المصرى الإسلامى .

صور من الفنون القبطية

العمارة :

العمارة كأى لون من ألوان الفنون الجميلة انعكاس للبيئة بكل ما تحويه من معان روحية ومادية ، والعمارة المصرية القديمة يتمثل فيها هذا المعنى بشكل واضح مجسم . فهى فى جميع مراحلها تعبر لنا تعبيراً واضحاً عن التيارات المختلفة التى تنازعت المجتمع المصرى فى مختلف العصور . ولعلنا لا نكون مبالغين إذا ذهبنا إلى أن التفوق والتسامى اللذين امتازت بهما العمارة المصرية القديمة كان لها صدى روحى بالغ الأثر فى تكييف الفن المعمارى فى جميع أنحاء العالم . ومن مزايا العمارة المصرية القديمة حتى الدولة الحديثة ، أن فنها كانت تنبثق من بين خطوطه إشعاعات قوية إستطاع على ضوئها اليونان والرومان معرفة السبيل إلى التكوين والإنشاء ، إذ عرفوا منها كيف يضعون خطوطهم المعمارية لتتلاقى عند هدف واضح .

والعمارة القبطية هى هى العمارة الفرعونية ، وهى العمارة اليونانية الرومانية فى مصر وهى العمارة الإسلامية فى مصر . وأما الفوارق التى تفصل بين كل منها : فهى فوارق إقليمية اقتضتها السلطات الزمنية فى عهد ما ، ثم بعض

اعتبارات دينية ، ولكنها فى الحقيقة تلتقى عند الأصول والأسس التى قامت عليها العمارة الفرعونية . ومهما يكن فإن ما دخل عليها فى كل عصر من تحوير أو تكييف بما يلائم ظروف البيئة ، لم يمنعها من أن تظل محتفظة بروحها وعناصرها الأساسية .

والعمارة القبطية قفزت بروح الفن الفرعونى وبعناصره ، وكل ما طرأ عليها من تحوير فإنه لم يمس إلا مظهرها الشكلى فقط . فهى حلقة أخيرة أكملت حلقات الفن المتصلة منذ الحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية الرومانية بمصر .

ولما كان الفن المصرى يرتبط بفنون الدين ويلازمها ، فقد احتفظ فى العهد المسيحى بكثير من التقاليد والعادات المصرية القديمة ولازم الدين وبخاصة ما كان منه متصلاً بالرمزيات والتقاليد فى الحياة اليومية والجنائزية والأعياد وغيرها . أما مركز المسيحية فى الغرب وهى رومه التى تشرف على الحضارة الأوروبية الغربية ، ثم القسطنطينية وهى مركز الحضارة الشرقية ،فقد حاولت كل منهما إيجاد طراز جديد لعمارة تتفق مع الدين الجديد إلأ أنهما كانتا دائماً مقيدتين بالحضارات القديمة التى سبقت العهد المسيحى ، ووجدتا نفسيهما مضطرتين لنقل كثير من تعاليم هذا الدين الجديد عن مصر ، التى سبقتهما فى المعرفة والعلم ، ونقلتا عنها الكثير من الرموز والتقاليد ، كما نقلتا كثيراً من فنون مصر واتخذتا منها منبعاً للوحدات الزخرفية التى قرب فيها المصرى بين نماذجه القديمة وبين دينه الجديد ، ولذلك ترى أن مراكز المسيحية تبنت من هذه الوحدات الزخرفية القديمة ما استطاعت كل منها أن تفسره بطريقة تتفق مع دينها الجديد .

لو تخيلنا مدينة مصرية قائمة من العصر القبطى ، لوجدناها تشبه فى تخطيطها المدن المصرية القديمة . ففى الصعيد حيث يندر المطر كانت البيوت تبنى من اللبن كمدينة هابو غربى الأقصر ، وفى الوجه البحرى كانت البيوت تبنى من الطوب الأحمر أو الحجر الجيرى كما عرفناها من مدينة أبا مينا (القديس مينا) بالصحراء الغربية قرب الإسكندرية .

وكانت للبيوت أبواب خشبية كبيرة كما نراه فى الريف المصرى الآن . ولها مزلاج من الخشب معروف إلى اليوم ، وكانت للبيوت أسقف مرتفعة ، ولها واجهات منمقة بحجارة منقوشة مزخرفة بأوراق العنب عادة . وكانت بها كنائس كالتى عثر على بقاياها فى مدن أبا مينا ومصر القديمة وباويط والبهنسا وإسنا وطيبة وسقارة وأسوان وسوهاج والواحات الخارجة ، وتتكون من قاعات فسيحة بها صفوف من أعمدة رخامية مستديرة أو مضلعة ذات رءوس منقوشة بأبدع النقوش والألوان الثابتة الزاهية . ويكون هيكلها مفصولاً عن القاعة بحجاب مصنوع من الخشب المنقوش أو المعشق ، على أشكال هندسية مختلفة ومحلى بصور القديسين وأشكال مختلفة للصليب . وبعض رقائقه من العاج ، كما نجد ذلك فى كنيسة أبى سرجة فى مصر القديمة . وفى الناحية الشرقية من الكنيسة حنية أى تجويف فى الحائط .

والكنيسة تكون أحياناً مستطيلة كالشكل المعروف بالطراز البازليكى ويذهب البعض إلى أن تصميمه دخيل على الأقباط ، وواقع الأمر أنه مصرى صميم نجده أول الأمر فى قاعة الإحتفالات بمعبد الكرنك التى شيدها تحتمس الثالث حوالى سنة 1400 ق . م . وتكون الكنائس أحياناً أخرى ذات قباب بحيطان مطلية من الداخل بطبقة من الجبس مرسوم عليها صور للسيد المسيح والقديسين أو مزخرفة بزخارف مثبتة من الجبس أو الحجر فى بواطن عقودها وفوق أعمدتها وفوق الأركان المخصصة لصور القديسين .

وإذا كانت المدينة قريبة من الصحراء مثل مدينة أبو مينا أو مثل الواحات الخارجة أو أحد الأديرة الصحراوية ، حفروا لها الآبار والسواقى أو خزنوا مياه الأمطار فى مخازن تشبه كثيراً هذه الآبار التى نجدها فى الصحراء الآن والتى يسميها البعض آباراً رومانية ، وواقع الأمر أن الفراعنة قد عرفوها قبل الرومان بالآف السنين . وكانت أدوات النجارة وأدوات الحقل تشبه تلك التى نشاهدها الآن عند النجارين الذين يصنعون السواقى الخشبية . ونجد صوامع للغلال ، ومصانع للهدايا التذكارية تشبه إلى حد كبير المصانع التى نجدها الآن فى خان الخليلى أو فى أسيوط .

التصوير :

كان التصوير السائد فى العصر القبطى يسير على الطريقة التى تواترت منذ أقدم العصور فى مصر وهى طريقة التصوير بألوان الأكاسيد (الفرسك) على الحوائط المغطاة بطبقة من الجبس . وقد استمر الرسم بهذه الطريقة المصرية القديمة إلى العصر الرومانى . واتخذت هذه الطريقة فى الرسم شكلاً مسيحياً فى العصر القبطى ، ومنها انتشر بين مسيحيى الشرق والغرب ، وظل الأمر كذلك حتى عصر النهضة .

أما فى مصر فقد حافظ التصوير على الطريقة القديمة حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم أخذ القبط إلى جانب هذا اللون بطرق أخرى فى التصوير . ولم يأخذ التصوير القبطى أشكاله من الطبيعة المنظورة ، ولكنه صور القديسين والشهداء وموضوعات من الكتاب المقدس ، وكان رائده فى ذلك المثل العليا التى تظهر فيها صور الأشخاص على درجة من الإستقرار والوقار حتى أنهم رسموا المسيح طفلاً بوجه كبير ، لا سذاجة فيه ، وتحاشوا أن يرسموا ظلالاً على الوجوه وراعوا بساطة اللباس وهدوء الألوان .

النقش على الحجر والخشب

نشاهد الآن فى المتحف القبطى فى مصر القديمة وفى متاحف العالم المختلفة تيجاناً لأعمدة من الحجر نشعر فيها بتأثير البيئة على الخيال الفنى ، فمنها المجدول على شكل السلال تجديلاً أتقن النحات صنعه ، حتى بدا شديد الشبه بالسلال

المصنوعة من القصب التى لا زالت متداولة بيننا ، ومنها تيجان منحوتة بشكل زخرفى لأوراق النبات أو الفروع النباتية ، أو الزخارف المتشابكة من نبات العنب أو الرمان أو نبات الأكانتس أو سعف النخيل أو نبات اللوتس ، ومنها تيجان مزينة تجاويفها بزخارف محارية الشكل وبعضها ملون باللون الأخضر وهو اللون الطبيعى للنبات ، وهناك بعض زخارف عثر عليها تعبر عن ظواهر الطبيعة كمداعبة الهواء لأوراق الأشجار ، جاء التعبير عنها تعبيراً حياً يكاد يسمعنا حفيفها .

وكانت النقوش تزين الجدران بالألوان ، أو بالحفر ، وكذلك عبر هذا الفن عن البيئة تعبيراً صادقاً ، فنجد فى المتحف القبطى على سبيل المثال واجهة باب من باويط (وهى بلدة قرب منفلوط تتبع مركز ديروط بأسيوط) من الحجر الجيرى على شكل نصف دائرة وقد حلى برسوم هندسية وبزخارف ثمار الرمان . وهذا يدل على ارتباط المصرى قديماً وحديثاً وفى مختلف العصور ، بخواص البيئة المصرية بل والأقاليم المصرية . ولا يزال الرمان ينسب إلى منفلوط .

كذلك زخرف القبط الحوائط والأفاريز بصور من الطيور والحيوان ، فنرى ضمن زخارف الفن القبطى صوراً لصيادى الطيور والأسماك والوحوش المفترسة كالأسود فضلاً عن الحيوانات المصرية الأليفة كالأرانب و الغزلان . وأصل الكثير من هذه الزخارف يرجع إلى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصرى فى عصوره المختلفة . كما نرى ضمن الزخارف المعمارية صورة للحداد القبطى تحيط به أدواته بشكلها المعروف فى مصر اليوم .

ولم تكن روح الدعابة تنقص الفن القبطى ، فإننا نجد على الآثار القبطية ضمن ما خلفه من الصور والنقوش ، لوحات تمثل وفد الفيران يتقدم إلى القط طبقاً للقصة المشهورة ، وقد رفع الفيران علماً هو الذى يعتبر حتى اليوم علم الهدنة والأمان . كما نجد منظراً لملاح محفوراً فى الخشب والملاح يداعب تمساحاً بيده .

<u>المنسوجات :</u>

اشتهرت مصر منذ عصورها القديمة بصناعة المنسوجات وكانت تصدر منتجات نسيجها إلى جميع بلدان العالم . وبالرغم من دخولها تحت الحكم اليونانى ثم الرومانى لم يتغير النسيج ، وظل محتفظاً بطابعه المصرى فى صورته القبطية .

أتقن الأقباط هذه الصناعة كما أتقنوا معها صناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة وكانوا يصدرون منسوجاتهم إلى رومه وبيزنطة . وقد وصلتنا نماذج كثيرة من المنسوجات القبطية يرجع الفضل فى بقائها إلى جفاف التربة المصرية وإلى عادة الأقباط فى تكفين موتاهم بأجمل لباسهم ودفنهم فى مقابر رملية فى الصحراء بعيداً عن وادى نهر النيل خوفاً من مياه الفيضان .

كانت المنسوجات تصنع من الكتان والصوف كما صنعت من القطن ، وأشهر المدن فى هذه الصناعة كانت تانيس والإسكندرية وشطا ودمياط ودبيق والفرما فى الدلتا ، وفى الوجه القبلى البهنسا وأخميم وأنطينوى (المعروفة الآن

باسم الشيخ عبادة) والفيوم . وكانت الصانع القبطى يزخرف النيسج برسوم للطيور والأسماك أو نبات اللوتس أو عناقيد العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص أو أوجه .

الفنون الصغرى :

منها الفنون الخاصة بالتزين عند المرأة ، وصناعة المعادن ، ثم الخط والتجليد .

أما عن التزين عند المرأة فقد كانت المرأة تستعمل الكحل للرموش واللون الأزرق حول العينين والأحمر للوجه . وكانت تضع القرط الدائرى الواسع فى أذنيها أو أقراطاً على شكل عنقود العنب ، وتزين معصمها بأساور سميكة تنتهى برأس حية من كل ناحية . وبعضها كان مبروماً ينتهى برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر وكان بعض حليها الذهبية مرصعاً بالجواهر الكريمة . وكانت تضع عقداً أشبه باللبة المعروفة الآن فى مصر . وكانت تلبس الخلخال الذى يصنع من النحاس أو الفضة ، وقد تصنعه المرأة الثرية من الذهب .

وقد وصلتنا من العصر القبطى مكاحل وأمشاط من العاج ، وعلى سبيل المثال نجد مشطاً رقم 5661 بالمتحف القبطى نقشت عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكئة على سرير تحته كلب ، ويرجع هذا المشط إلى القرن الرابع الميلادى ، ويشبه كل الشبه أمشاط مصر الفرعونية . وعرفوا أيضاً المشط المسمى الآن بالفلاية . وهناك أمشاط من العاج عليها رسوم دينية مسيحية .

والرسوم المختلفة التى وصلتنا من هذا العصر تبين لنا صوراً حية من الحياة المصرية التى نحياها والتى كان المصرى القديم يحياها والتى حفظتها لنا آثار العصر المصرى المسيحى ، ومنها الصورة الصغيرة المحفوظة فى متحف بريشيا لامرأة قبطية جالسة مع إبنتها وإبنها وبجانبها صندوق حليها العاجى ، وتلتحف الإبنة بشال من القماش المصرى يشبه ما نعرف اليوم من المنسوجات ، عليه نقوش من الأساطير القديمة . ومنها صور النساء الثلاث التى وجدت فى انتينوى وقد أطلق على اثنتين منهن تاييس وليكيونا وعلى الثالثة السيدة البيزنطية ، نجد تايسيس لابسة ثلاثة قمصان وجلبانين فوق بعضهما كما نرى ذلك شائعاً بين بعض السيدات فى الريف والوجه القبلى ، وفى وسط الجلباب منطقة لها أكمام طويلة ، والجلباب محلى بحافة حمراء فى أسفله ، وله خطان رأسيان فى الأمام من الحرير الأصفر ، كما نجد ليكيونا مرتدية جلباباً من الكتان الأبيض محلى أيضاً عند أسفله وعند الأكمام والياقة بخط أزرق غامق ، ونلاحظ أنها قد لفت شعرها بشال جمع إلى أعلى فى شبه تاج . والنسوة الثلاث تعطينا صورة حية لأنواع الملابس وطرزها ، والأنواع العديدة لتصفيف الشعر مما يجعلنا نتخيل ما كان عليه النساء عامة فى العصر القبطى من أناقة وذوق سليم فى ملبسهن وزينتهن .

أما عن فن الصناعات المعدنية ، فإننا نجد المصنوعات المختلفة التى استخدمتها المرأة لزينتها ، ونجد مصابيح فى أشكال مختلفة وقواعد للشموع وأوانى منزلية متعددة الأشكال .

الخط والتجليد :

كان المصريون منذ أقدم عصورهم يصنعون الورق من البردى ويصدرونه إلى كافة أنحاء العالم . وها نحن نجد الأقباط يكتبون على البردى وعلى الرق . ثم يتقدم بهم الفن فيزينون صحائف الكتب بالرسوم ذات الألوان الزاهية الثابتة ، هذه الصحائف التى بلغت دقة الحروف المطبوعة بإتقان ، والتى يبهر جمال زخرفتها كل من يراها .

خاتمة :

كانت هذه الفنون فى أيدى صناع مدنيين ، وكان الرهبان فى الأديرة أيضاً يتقنونها ، فإنهم رسموا الرسوم ، ونسخوا الكتب وزخرفوها بمختلف الزخارف الملونة الجميلة ، وأتقنوا النجارة والبناء ومختلف الصناعات .

ولما دخل الإسلام مصر ، اهتم العالم الإسلامى بصناعات الأقباط فنجد الخلفاء يختارون مصر لترسل الكسوة السنوية إلى الكعبة لما لمسوه من إتقان المصريين لصناعة النسيج ، ويختارون من إنتاج هؤلاء الصناع ما يخلعونه على أتباعهم من الأردية ويسمونها " القباطى " نسبة إلى صناعها الأقباط ، واشتغل كثير من رجال المعمار الأقباط فى إنشاء المساجد والعمائر ، وعن الفن القبطى أخذ الفن الإسلامى المحراب والمئذنة والقباب .

وكان العصر الفاطمى بمصر فاتحة لإظهار الفن الإسلامى فى شخصيته المصرية الإسلامية المتميزة ، وعندئذ أخذ الفن القبطى ينحصر بين الأقباط أنفسهم ويحيا مرتبطاً بالنواحى الدينية والطقسية حتى عصرنا هذا .

وقد كانت كتابة المخطوطات وزخرفتها زاهرة فى الأديرة القبطية ومازالت هذه البراعة متوارثة بين بعض الرهبان مثل المجلدين الضخمين اللذين تركهما الأنبا مكاريوس البطريرك المتوفى سنة 1945 ، وقد رسمهما وهو راهب فى أديرة وادى النطرون وهما يشهدان بدقة هذا النوع من الفنون القبطية . ويحوى كل من هذين المجلدين حوالى 700 رسم ، كل منها يخالف الآخر ، نقل بعضها عن المخطوطات القديمة وقد أختار أن يرسمها بالألوان الزاهية مثل سلفه من الرهبان . وكتب على بعضها الأصل الذى نقل عنه ثم وصف طريقة الرسم التى كان الرهبان يتبعونها .

الرواسب الفنية

يعيش المصريون فى دورات زراعية يشترك فيها النيل والفلاح والحيوان والطير ، كل يقوم بدوره على وتيرة تكاد تكون واحدة منذ بدء موسم الزرع فى هذا الوادى الخصيب ، ومن هذا النظام الطبيعى وما يتجلى فيه من تعاون من بذر وسقى وحصاد ، تكَون لدى الفلاح أساس ثابت متين .

ثم مرت على المصريين ديانات تباينت فى مظهرها ، وتشابكت فى أصولها ، كما تعاقبت عليهم ألوان من الحياة الإجتماعية اختلفت فى قيمتها وتوحدت أغراضها ، فترسبت منها فوق هذا الأساس المتين رواسب إنسانية سليمة عملت على تكوين مبنى المصرى الروحى والفنى .

وهذه الرواسب التى يحملها المصرى رواسب قديمة ممعنة فى القدم ، تميزه عن غيره من الناس فى هذا العالم ، وهذا التراث غير منظور .

أما تراثه القديم المنظور ، فقد أماط العلماء اللثام عن بعضه ، ولا يزال الكثير منه خافياً أو مختفياً سيظهره العلم يوماً ، ويتداوله العلماء بالفحص والتمحيص .

أما التراث غير المنظور فلا يملك غير المصرى الكشف عنه ، فهو من صميم حياته الداخلية ، بما فيها من رواسب نفسية وقدرة تلقائية لا تغزوها المادة ، ولا تتحكم فيها الأوضاع العرفية المتداولة بين مختلف الشعوب . فهى سلسلة متصلة من الرواسب غير مضطربة أو متقطعة أو مصطنعة الاتصال ، وهى وحدة متماسكة الحلقات . والمصرى وحده هو القادر على التفاعل مع هذه الرواسب ، يتناولها عن طريق الرضى والرغبة وعدم التكلف ثم عن طريق الحب والمثابرة . وهى السبيل للوصول إلى أعماق نفسه ليستخرج منها ثروة كامنة أصيلة فى نفسه .

يقول المرحوم حبيب جورجى " بهذ الإيمان بدأت تجاربى للكشف عن كنه الرواسب فى الأطفال الذين لم تمتد إليهم السدود التى تعترض الفيض ولم تتحكم فيهم نظم التعليم والتوجيه . سهلت لهم سبل الحياة الراضية والخالية من الصنعة والكلفة ، ففاضت نفوسهم بتراث مصرى صميم ، أذهل العالم وحير العلماء لما وجدوا فيه من أوجه شبه واضحة مع أسلافهم منذ آلاف السنين " .

يقول مدير مصلحة الآثار حين شاهد الإنتاج الفنى لهؤلاء الأطفال :

" من الواضح أن النحت الذى كان الإعجاب به شديداً فى مصر القديمة ، هو وليد التربة أو هو نتيجة لحساسية ترهفت بفضل تلاعب النور الخلاب وسط الآفاق اللانهائية ، حيث الجدب المتناهى يتباين مع الخصب الوفير . وحيث يتآلف هذا المجموع وينتهى إلى إدراك الأبدية . ولقد أستوحى النحت المصرى كل أشكاله من هذه الروح ، وهذا ما يضفى عليه فى مجموعه ، وعلى الأخص فى تناسقه الداخلى تلك الصفة التى تكاد تعلو على الإنسانية حتى لكأنها تشارك فى اللانهائية والتى لا يمكن أن نجد لها مثيلاً فى أى مكان آخر فى العالم . وكان الأستاذ حبيب جورجى يرغب فى أن يتبين صلة الفن فى مصر بالتقاليد الفرعونية التى صنعتها المدنية اليونانية منذ أجيال ، فغامر بتجربة ليجعل التربة تتكلم من جديد وأحضر بعض المراهقين من الطبقة الشعبية التى هى من أمعن الطبقات مصرية ، تتميز بحساسية

فنية ، ولكنها أبعدت قصداً عن علم الرسم وعن الطرق المدرسية ، ثم تركها لتخلق فى حرية كاملة أعمالاً فنية أبتدعها كل بنفسه وعلى فطرته .

وتطلب هذا العمل صبراً ومثابرة من الأستاذ حبيب جورجى ، فكان عليه أن يوجه تلاميذه الذين انتخبهم فى عناية فائقة نحو إدراك الأبعاد وهم يشكلون الطين ، وأن يرشدهم فى اختيار مصادر وحيهم وفى توضيح طرق التعبير عندهم ، وذلك من غير أن يؤثر فيهم أو أن يجعلهم يشردون . كذلك كان عليه أن يدربهم على نحت الحجر ، وكان هذا العمل أقل مشقة من الأول .

وقد ظهرت النتائج ، وفى وسع كل إنسان أن يحكم عليها . حقاً أن القالب الذى صيغت فيه هو قالب مصر الحاضرة ، وهذا هو الطبيعى فى الأمر ، لأن الغرض الذى يهدف إليه ليس أن يحيى الرسم ، بل غرضه أن يوقظ الروح ويبعث التقاليد فى التعبير .

والشىء الذى أدهشنى شخصياً فى هذه المدرسة الناشئة هو أن روحها تتحد وروح مصر القديمة فى تناسقها وفى توزيع أجزائها . ولو أن مثالاً من العصور الفرعونية أراد أن يمثل الحياة فى مصر الحديثة لما صورها على غير هذه الصورة . وسيظهر المستقبل إلى أى مدى وإلى أية قوة فى التعبير تستطيع هذه المدرسة أن تبلغ ، كما سيظهر المستقبل عدداً من الفنانين الذين شاركوا فى التجربة ومهدت لهم السبيل .

ونستطيع الآن أن نؤكد أن العروة قد توثقت ، وأن هذه التقاليد صميمة لأنها هى بعينها تقاليد مصر الفرعونية " .

الموسيقى والألحان

تدل الصور المنقوشة على جدران المقابر والآلات الموسيقية التى عثر عليها فى مصر ، على أن الشعب المصرى منذ عرفناه فى التاريخ ، يميل بطبعه إلى الغناء والموسيقى ، ويستخدمها فى المناسبات المختلفة فى حياته الإجتماعية ، وفى الاحتفالات العديدة فى حياته الدينية .

يقول فيثاغورس العالم اليونانى الذى جاء إلى مصر فى عهد الإحتلال الفارسى ، أى فى القرن السادس قبل الميلاد ، إنه جمع ما وجده فى مصر من عناصر موسيقية مكنته من وضع نظريته فى الموسيقى .

زار هيرودوت مصر حوالى سنة 460 قبل الميلاد وذكر فى تاريخه عن مصر فقرة 79 إن المصريين ينشدون لحناً حزيناً ، ذكر أنه أقدم الألحان عندهم ، وأنه من الأمور التى أعجب منها فى مصر .

وذكر ديمتريوس الفاليرى حوالى سنة 280 قبل الميلاد أن كهنة مصر كانوا يكرمون آلهتهم فى الاحتفالات بالترتيل ، وكانوا يرتلون بالأحرف المتحركة السبعة : واحد بعد الآخر على التتابع ، وكان هذا النوع من الغناء يغنى عن استعمال المزمار أو القيثارة ، هذا وما زال الكثير من الألحان القبطية يرتل بهذه الأحرف

إلى اليوم . وكان القدماء يعتبرون طريقة الترتيل بهذه الأحرف يؤدى إلى التعبير عن شعور دينى عميق .

ولما انتشرت المسيحية فى البلاد المتباينة وتكونت كنائسها ، نشأ معها فى كل قطر فن موسيقى كنسى تمشى مع النزعة الفنية الموسيقية لكل شعب . وشكل الشعب موسيقاه بما يتفق مع ذوقه مستمداً ذلك من تقليده .

وقد ذكر الفيلسوف الإسكندرى فيلون الذى عاش فى القرن الأول للميلاد أن الجماعة الأولى من المسيحيين المصريين اقتبست ألحاناً لعبادتها الجديدة من الأنغام المصرية القديمة . وهذا يوضح لنا كيف انبثقت الموسيقى الكنسية المصرية من الفن الموسيقى المصرى ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الألحان الشائعة إلى الآن فى الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت منذ عهد بعيد . فاللحن السنجارى نسبة إلى بلدة سنجار ، التى تقع شمالى محافظة الغربية ، وعرفت منذ أيام رمسيس الثانى وكانت تحوطها الأديرة فى العصر القبطى . وكذلك الأتريبى نسبة إلى أتريب القديمة (بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة أخميم) .

والكنيسة القبطية من أغنى كنائس العالم – إن لم تكن أغناها – فى فنها الموسيقى . والموسيقى جزء لا يتجزأ من ترتيبات عبادتها المتنوعة وطقوسها الطويلة . وهذه الطقوس كما نعرفها الآن قد وصلتنا كاملة منذ القرن الخامس للميلاد ، لا تشوبها موسيقى بيزنطية أو لاتينية أو فارسية أو غير ذلك من أنواع الموسيقى المعروفة شرقية أو غربية .

والموسيقى الكنسية – كما وصلتنا – صوتية بحتة لا تستخدم الآلات الموسيقية فى آدائها . وقد تناقلتها الأجيال بالتواتر شفاها . ودونت موسيقى الكنيسة القبطية أخيراً بالنوتة الموسيقية للصوت وتقع فى عدة مجلدات لم تنشر بعد . وكذلك سجلت جميع ألحانها على أشرطة صوتية ، هى موضع درس يمكن أن نقابل بين بعضها ، وبعض الأغانى الشعبية القديمة السائدة الآن فى مصر وأوجه الشبه بينهما ملحوظة .

والألحان تتفاوت طولاً وقصراً ، ويبلغ بعضها خمس عشرة دقيقة ، ومنها ما ينغم على كلمة واحدة أو بضع كلمات . وعلى الرغم من ذلك فالموسيقى القبطية ليست معقدة وتتكون من صوت واحد أى لا تتعدد نغماتها فى وقت واحد ، ولها من بساطتها قوة تأثير على العاطفة مهما اختلفت الأذواق ، وهى ألحان معبرة . وفيها اللحن الحزين ولحن الفرح . قال أحد علماء الموسيقى عند سماع الألحان الحزينة " أن أنغامها عريقة فى القدم ، فيها حض على الزهد ، واسترخاء للنفس الطاغية ، أما ألحان الفرح ففيها نشوة تشعر الإنسان بلذة روحية وتسمو به إلى عالم أسمى " .

ومن أقدم الألحان لحن لاكليمنضس الإسكندرى (160 – 220 م) مدون فى آخر كتابه " بيداجوجوس " يردده المعتمدون لشكر السيد المسيح لأنه خلصهم من الخطية . وهذا اللحن غير مستعمل الآن ، وهناك نص لحن قديم عن عيد الصليب ، وضع لمناسبة العثور على الصليب سنة 326 ميلادية .

أما أقدم لحن مكتوب بعلامات موسيقية ، فقد عثر عليه مدوناً فى بقايا بعض أوراق بردية كشف عنها فى مدينة البهنسا ، وهذه الأوراق من أواخر القرن الثالث الميلادى .

والموسيقى الكنسية موجودة فى القداسات وفى ألحان المناسبات ، والقداس القبطى هو القداس الوحيد فى جميع كنائس العالم ، الملحن من أوله إلى آخره .

وللكنيسة المصرية أربعة قداسات خاصة بها :

1 – القداس الكيرلسى وينسب إلى مرقس الرسول ، وكانت أوضاع هذا القداس قد استقرت قبل كيرلس الكبير ، وأوجه الشبه واضحة بينه وبين قداس ماريعقوب وقداس عهد الرب . هذا وقد ضاعت أغلب موسيقى القداس الكيرلسى ولم يبق منه إلا بعض ألحان يستعمل للترحيم فى الصلاة على الموتى .

2 – القداس الباسيلى ، وتوجد منه ثلاثة قداسات منسوبة إلى باسيليوس الكبير ، قداس باسيليوس لكنيسة القسطنطينية ، وقداس باسيليوس عن السريان وقداس باسيليوس القبطى . والقداسات الثلاثة تختلف عن بعضها فى النص والطقس واللحن .

وقداس باسيليوس القبطى استعملته الكنيسة قبل الإنفصال سنة 451 م أى قبل كيرلس الكبير ، وموسيقى القداس الباسيلى مصرية كلها ، إلا مقدمة القداس والإعتراف فموسيقاها بيزنطية .

3 – القداس الغريغورى وهو خاص بالكنيسة المصرية منذ قبل الإنفصال ، ونغماته مصريه كلها إلا أوله والاعتراف فموسيقاهما بيزنطية .

4- قداس الأنبا سرابيون أسقف تومیس الذى كان تلميذاً لأنطونيوس الكبير وصديقاً للأنبا أثناسيوس الرسولى ، ويخيل إلينا أن هذا القداس لم يكن واسع الانتشار ولم يستمر استعماله مدة طويلة ،ونحن لا نعرف عن موسيقاه شيئاً .

فهذا الفن القديم ورثته الكنيسة القبطية وحافظت عليه ، ولعل فى دراسته العلمية ما يعود بنا إلى أصوله المصرية القديمة ، فإن الموسيقى الكنسية القبطية أقدم مدرسة موسيقية معروفة فى العالم .